

إضافات باعامر

الإبحار في محيط الصمصام

توطئة:

تدخل محاولات الإبداع في اليمن فضاءات استثنائية منذ أعوام ليست بكثيرة، وبالرغم من ذلك تظل هذه المحاولات - إلا فيما ندر - كثيرة القصور لا ترقى إلى الإبداع الروائي المنتشر على خارطة الوطن العربي، ناهيك عن المستوى الإبداعي الإنساني على الإطلاق.

ولقد اتخذ جنس الإبداع الروائي في اليمن مساراً متواضعاً منذ بدايته في العام (1939) وحتى الآن إذا اعتبرنا رواية (سعيد) - للمرحوم محمد علي لقمان، بداية للمضمار، حيث مضى معظم من تلاه بتؤدة واضحة يتلمسون خطاهم باستحياء جلي إلى سفر الكتابة في هذا الميدان الإبداعي الهام..

وعلى مدار (55 عاماً) تقريباً لم يتجاوز رصيد المبدعين الروائيين اليمنيين الـ (ثلاثين رواية) - لا يرقى القسم الأعظم منها إلى مستوى العمل الروائي الإبداعي الحق، كما تلمسناه عربياً وعالمياً.



محمد ناصر شراة

مجموعته القصصية الثانية (دهوم المشقاصي) وتتضح في هذه الرواية استفادته من أعماله القصصية القصيرة السابقة، وهو ما سيتضح لاحقاً.

بانوراما المشهد الروائي:

السحيم وسويلم صديقان حميمان، جمعتهما مسيرة حياة تمتد على مدى زمني يستهل بالطفولة ولا ينتهي على مدار الرواية.

يتماثلان في صفاتها وميولهما حتى إننا لا نلمس أي تباين أو تعارض لأيهما على الإطلاق: رفته في سني الدراسة، بدايات علاقتهما المبكرتين بالجنس الآخر اللتين انتهتا بالزواج، ثم رفقتهم في حب البحر والعمل معاً رفيقين على ظهر سفينة واحدة.

يستحوذ السهيم ومسار حياته على النصيب الأوفر من اهتمام (الراوي) فيفرد له مساحة تتجاوز 75% من مجمل رقعة العمل الروائي فتتبعه - بدون ترتيب- تلميذاً في مدرسة ابتدائية، مجداً فيها ومبرزاً، محباً لفتاة (سقطريه) اسمها (حسنة) جاءت مع أبيها إلى البلدة - تقع في حضرموت - حيث اشتغل أبوها حجاماً، تبدأ علاقة الحب هذه حين يذهب السحيم مع والده (أسمه الساري) إلى حي خاص ب (السقاطرة) ويتلقى الحجابة من أبي حسنة (اسمه صالح باصيريرة) يلتقي السحيم بحسنة على ساحل البحر ومن حينها تبدأ بينهما علاقة سامية ومشبوبة تظل تلازمهما بصورة تصاعدية حتى الزواج، لا يكدر هذه العلاقة سوى رفض (الساري) والد السحيم زواج ابنه من حسنة، تحت مبرر (وضاعة محد الفتاة ودونية مهنة الحجابة التي يمارسها أبوها)، ولكنه يقبل لاحقاً ويحتال على ابنه بالقبول موافقة الابن على العمل معه في التجارة في الدكان - فيرضخ السحيم ولكن مماطلته الأب تطول، ولا يتم الزواج إلا بعد أن يتمرد الابن فيهجر أباه ويختار العمل في البحر الذي طالما تاق إلى تحقيقه حياً في البحر ومغامراته وفتوح الأسفار إلى عوالم أخرى مجهولة مع صديق عمره سويلم، ولكن القصة (الرواية) تنتهي هنا (نهاية مفتوحة) مؤداها كما يتضح لنا تحقق الحلم والمراد، وبداية كفاح من نوع آخر أرادته صالح باعامر مجالاً مفتوحاً عن قصد واضح مع تتبع مسار الرواية تعثر على شخص آخر، أهمها: عائلة سويلم، ومحنيتها بعد فقد الأب باكراً، إثر كارثة بحرية أودت بحياته، واضطراره لترك المدرسة والعمل في البحر حيث تلازم مع صديقه السحيم أخيراً، ثم دور المدرسة والجامع وشخصية أمام الجامع (الشيخ خالد باعباد)

في مجمل قصصه القصيرة نستطيع أن نميز قواسم مشتركة انسحبت على رقعة كل أعماله الصادرة حتى الآن (بما في ذلك رواية الصمصام) بنفس اللبوس الفنية والموضوعية للخاص.

يمثل (البحر) محوراً أساساً لمعظم أعمال باعامر وهو يمثل بالمعاني التالية: مصدر الرزق الأكثر إتاحة وشرافاً، فهو لذلك يكتسب (سموا) مطلقاً تؤكده حاجة الناس (الشخص) لمدار خيراته التي تتأتى من خلال الصيد والأسفار والتجارة واكتشاف المجهول.. الخ.

كما تتعدد سمات متاحة أخرى ثانوية، فقد يغدو شاطئه ملتقى للعشاق والمحبين ومضماراً لا ينافس لإحياء أوقات السمر واللهو.

رمز أعظم للمشاق والمكاره والجلد والمواجه التي تلازم رواده ومريديه، ولذلك يكتسب (سموا) آخر تسبغه عليه المرة مزية العمل الشريف الشاق.

يوازي ويرادف في مكانته ما تحتله المرأة في جوانح الرجل من الحب والسمو والخصب الجدلي والمعنوي.

المشاعر نحوه، لا تتلمها الكوارث والمآسي التي تنتج أحياناً من ركوبه وخوضه.. بل قد ترفع من شأن موقعه الجليل في النفس- علاقة (الرجل / المرأة) هي الأخرى محور أساس آخر، ونلمس مستويات مكانة هذه العلاقة ودلالاتها من خلال:

المرأة رفيق حياة لا غنى، كحقيقة غريزية لا نملك تنقيداً لها أو اجتبابها.. فهي لذلك ضرورة تمتلك (سموها) من حقيقة دورها في الإشباع الجنسي، ولا تنقص هذه الحقيقة من (السمو) المحسوب لها.. بل أن ذلك هو أسمى ما ترمز إليه.

المرأة رفيق عمل وحفز لا بد منه لاستمرار وقدة الحماس لدى الرجل.. وتمثل عاطفة سامية متعددة.

(نفس الفقرة 3 الوارد ذكرها سابقاً .

احترام المرأة من احترام ذات الرجل وتكوينه، وهي تعني في كثير من قصص باعامر: الكفاح والمثابرة والجدل.. بقدر ما تعني: الضعف والضياع والشهوة المحرمة.

ثم تأتي الوظيفة (وهي محور آخر يوظفه باعامر لتعريبه سلوكيات فترة بعينها فرضتها السلطة، أساءت كثيراً للمجتمع بما حاولت بذره من شعارات سفسطائية، غير ذات نفع أو مردود إيجابي (انتصار للعمل).

كل المحاور الواردة ينظمها عقد (العمل) الذي ينتصر له صالح باعامر دوماً.. يضاف إلى ذلك علاقات أخرى أهمها الصداقة والعاطفة الإنسانية السامية وتفاصيل ثانوية أخرى.

يدعم صالح باعامر معانيه باستخدام مفردات ومصطلحات محلية تؤكد إمامه بتفصيلات حياة المجتمع في منطقته، حيث نلمس إحاطة جلية بالتنوع عنده لطقوس عمل البحارة والصيادين وعمال البحر ومجريات حياتهم وأهازيجهم، ومسميات عتادهم وعدتهم، ومكونات سفنهم وأجزائها والأسماء المحلية لأنواع شتى من الأسماك.. الخ وكان أراد الإبحار إلينا بعظمة وسمو عاطفته نحو البحر ورواده.. ما يؤكد لدينا توحيد القاص بأسمى لمعاني التي استخلصناها عنه وتمسكه بها عن سبق إصرار وترصد.

رواية الصمصام (11):

هذا هو أول عمل روائي للقاص صالح باعامر، صدرت له هذه الرواية عام (1993) أي بعد عام تقريباً من صدور

(الحضرمية) في قصة واحدة فقط - مما يعني عدم ميل باعامر إلى هذا الأسلوب الشائع في أقطار عربية أخرى. وهناك سمات أخرى نلمسها في هذه المجموعة سوف تكون مدار الرحي لمعظم قصصه اللاحقة.. بل ستكون مناط ومرتكز عمله الروائي الذي نحن في صدد.. وسنذكر ذلك تفصيلاً في حينه.

مرت تسعة أعوام قبل أن يتمكن صالح باعامر من إصدار مجموعته الثانية (دهوم المشقاصي) - وهذا البعد الزمني الكبير له تفسير آخر غير الكسل الإبداعي يطول شرحه، لا نرانا بحاجة إلى تناوله هنا واشتملت هذه المجموعة على ست عشرة قصة على النحو التالي:

دهوم المشقاصي
لغة الأمواج
العيك العيك
أوراق
الإبحار في عينيها
الرائحة
الشامة
الرقم المفقود
ظامئ إلى غير كأس
اللوحة
السفر إلى زمن الضوء
في الحوش رقم (7)
قطعة نقود



صالح باعامر

قطرة دم
الألة
إيقاعات الرحيل

يستمر صالح باعامر في مجموعته هذه بالالتزام بالثوابت الأخلاقية المتأصلة في مجتمع المنطقة المنتمي إليها، والتي سبق الإشارة إليها مع النزوع والتوق الواضح، إلى التأسيس الأكثر تحملاً لنهوض حدائي - مشروط كما نرى - يستفيد مما هو إيجابي فاعل في الحضارة الإنسانية بشمولية تأثيرها العصري ولكن تأسيساً على ثوابت أخلاقية وروحية ذات خصائص مطلقة في الذاكرة المكتسبة لديه.. تفعل فعلها في تكوينه وتكوين مجتمعه الواضح المحافظة، فيتم نتيجة لذلك تصادم غير متعمد ولكنه حتمي بين تلك الثوابت وذلك المشروع التحرري الأكثر انطلافاً.

كتبت قصص هذه المجموعة - كما نلمس من خلال تواريخ كتابتها التي ذلت بها - بين الأعوام (83 - 1989م) مع ملاحظة أنه سلك طريق الاختيار من بين جملة أكبر من القصص لتضمينها هذه المجموعة.

وما يهمننا هو بعد تاريخ كتابة معظم هذه القصص تاريخياً عن زمن كتابة المجموعة الأولى (حلم الأم يمى) وقربها بالنتيجة من زمن صدور روايته (الصمصام) وعليه يمكننا أن نعقد شيئاً من المقارنة، ومعرفة التطور اللاحق للقاص تأسيساً على الانطلاقة الأولى.

انطلافاً مما سبق يمكننا استخلاص ما يلي إجمالاً:

استبقاء الكثير من السمات المميزة للقاص موضوعياً وفنياً التي سبق لنا مطالعتها في مجموعته الأولى.. وسبق ذكرها.

نجد تطوراً ملحوظاً في وسائل القص الفنية، وبصورة أكثر بروزاً في تكتيك لقص، واختيار الجمل الأكثر إيجاء، والاستعاضة باللغة الموحية والمدلول غير المباشر بدلاً من السرد والحوار البسيط المباشر.

وباستكشاف البيان البيولوجرافي للرواية اليمنية يمكننا ملاحظة شيء من النشاط الملحوظ خلال العقدين الأخيرين، حيث صدر الكم الأكبر من الأعمال، تضمن بعض الأعمال المتميزة لكتاب مرموقين، دخلوا عباءة الرواية من فتاة أجناس إبداعية أخرى، (شعراء كتاب قصة قصيرة، كتاب مسرح.. الخ) .. نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: زيد مطيع دماج (قصة قصيرة) يحيى علي الارياني (شعر)، سعيد عولقي (مسرح وقصة قصيرة) .. وغيرهم، فلمسنا منهم تميزاً ملحوظاً يبشر مستقبلًا بما هو اجمل.

ومع هؤلاء يأتي القاص صالح باعامر، الذي بدأ مشواره الإبداعي بكتابة القصة القصيرة، ثم صدرت له مؤخرًا أول رواية تحت عنوان (الصمصام) .. وهي الرواية التي نحن بصدد قراءتها نقدياً فيما سيتبع.

مسار بيولوجرافي للقاص:

وقع صالح باعامر، اسمه الإبداعي في سجل كتاب القصة القصيرة خلال سني العقد السبعيني، الذي بروز كوكبة متميزة من المبدعين الشباب في مختلف أجناس الإبداع الأدبي والفني، وتمكن من إصدار أول مجموعة قصصية له العام (1983) تحت عنوان: (حلم الأم يمى) - التي تضمنت أربع عشرة قصة قصيرة هي على التوالي:

أصدقاء البحر.
الهروب من الوحل.
جثة تتقاد فيها الأمواج.
أغنية
اللوحة
إنتظار
حلم الأم يمى
رقص على ضوء القمر
رسالة.
10- الشروق عند بدء الصعود إلى الجبل
11- القرار الأخير
12- جميلة
13- عائد
14- محاولة أخرى.

وفي مجموعته الأولى هذه، يتطرق باعامر إلى مواضيع اجتماعية عدة تتراوح بين الرفض والامتعاض مما هو سائد أحياناً والتعاطف والمؤازرة لجوانب أخرى من منطق تقديس السامي في المجتمع ورفض الانحطاط والتفوق والمروق أحياناً أخرى، من جهة نظر تتأرجح كثيراً بين التصديق الإذعاني للموروث الروحي والأخلاقي المتأصل في مجتمعه العربي المسلم، والانفتاح على الآخر الأرقى بحذر محسوب يغلب عليه الابتعاد عن الخوض في المحذور الأخلاقي الأقدس - كما تضمنت هذه المجموعة بعض القصص التي انتقدت بصورة غير مواربة الانطلاق الجامح لتجربة السلطة الفنية في جنوب اليمن خلال العقدين (السبعيني والثمانيني) .. وأختار باعامر لمواضيعه تلك لباس: (الوظيفة وسلطانها، العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة من مستويات مختلفة، كفاح الإنسان.. سواء رجلاً كان أم امرأة.. الخ) واختار أسلوباً تكتيكياً قصصياً تراوح بين الجيد والمقبول إلى حد ما - مع الأخذ بعين الاعتبار خصائص النتاج الأول - كذلك تراوحت اللغة بين هذين المستويين. على أنني لا حظت استخدام اللهجة (العامية